مادة الأدب الإسلامي / المرحلة الثانية

د. ميسون محمد عبد الواحد

المحاضرة التاسعة

عنوان المحاضرة: (أغراض الشعر في العصر الاسلامي)

اولا / شعر العقيدة والدعوة:

إنّ لفظ الدعوة مصطلح إسلامي يطلق على ما دعا إليه الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وهو الدخول في الدين الإسلامي من قوله تعالى :(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) و الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو الداعي (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا).

وشعر الدعوة هو ذلك الشعر الذي دعا فيه المسلمون المشركون لترك عبادة الأصنام و الدخول في الدين الجديد ، وكان من الطبيعي أنْ نجد أشعارا لكفار قريش أو القبائل الأخرى يذكرون فيه أصنامهم وآلهتهم و يردون فيها على المسلمين ، إلّا أن هذه الأشعار قد ضاعت مع ما ضاع من أشعار المشركين للأسباب التي ذكرناها من قبل .

أمّا أشعار المسلمين في شعر الدعوة ، فإنّها تظهر عند بعضهم في إعلانه تبرئته من عبادة الأصنام ، و تسفيه آراء قومه فيها ، وهي مقطوعات قالها أصحابها حين أعلنوا اسلامهم وتبرّؤا مما كانوا يعبدونه .

ويمكن تحديد مضامين شعر العقيدة والدعوة بما يأتي:

أ- التبرئة من الأصنام وإعلان الإسلام:

ومثل هذه الأشعار لم تتجاوز الأبيات المفردة التي تكاد أن تكون رسالة مباشرة ، وقصيرة موجهة الى أبناء قبيلة الشاعر، أو معلنا اعلانا عاما ليبلغ به الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو أبناء قبيلته معا، ووهي غالبا أبيات خالية من الصنعة الفنية ، أو من العاطفة ، إلا أنها تقدم صورة لطبيعة الحياة الدينية التي كان الجاهليون من خلال رفض الشعراء عبادة ما كان آباؤهم يعبدونه.

فهذا ذباب بن الحارث السعدي التميمي أسلم يوم ظهر الإسلام ، و حطّم صنم قومه ، وأعلن ذلك شعرا:

تَبِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَخَلَّفْتُ فَرَّاضًا بِدَارِ هَوَانِ

و فراض هذا الذي يذكره في البيت هو صنم بني سعد من تميم كسره الشاعر بعد أنْ سمع بالإسلام وآمن ، فيقول واصفا كسرى :

شَدَدْتُ عَلَيْهِ شِدَّةً فَتَرَكْتُهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَالدَّهْرُ ذُو حِدْثَانِ

فَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّهَ أَظْهَرَ دِينَهُ أَجَبْتُ رَسُولَ اللَّهِ حِينَ دَعَانِي

فَأَصْبَحْتُ لِلإِسْلامِ مَا عِشْتُ نَاصِرًا وَأَلْقَيْتُ فِيهَا كُلْكُلِي وَجِرَانِي

فَمَنْ مُبَلِّغٌ سعدَ العشيرةِ أنّني شَرِيْتُ الذي يبقى بآخرَ فانِ

ويدعو شاعر آخر قومه الى ترك عبادة اللات؛ لأنها حجارة لا تدفع الأذى عن نفسها ولا عن غيرها ممن يعبدها، يقول شداد بن عارض:

لا تنصروا اللات أن الله مُهلكُها وكيف ينصرُ من هو ليس

أن التي حرقت بالسد فأشتعلت ولم تقاتل لدى أحجارها هدرُ

وإذا كان الشعراء الذين ذكرناهم قبل قليل قد أعلنوا تبرأتهم من عبادة الأوثان فإننا سنذكر في هذه الفقرة الشعراء الذين أعلنوا تبرأتهم من عبادة الآلهة مع اعلانهم توحيد الله والدعوة الى عبادة الواحد الاحد.

ب- محاججة المشركين :

يقول جبير بن زهير وهو أخو كعب بن زهير الذي أسلم قبل أخيه و دفعه حبه لأخيه الى إرسال الأشعار والرسائل إليه يدعوه فيها الى الإيمان الإسلامي فيقول في إحدى قصائده مخاطبا كعبا قبل أنْ يُسْلم يدعوه الى توحيد الله لينجو من عذابه يوم القيامة:

فَمَنْ مُبْلِغٌ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهْيَ أَحْزَمُ

إِلَى اللَّهِ لَا الْعُزَّى وَلَا اللَّاتَ وَحْدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النِّجَاءُ وَتُسْلِمُ

لَدَيْ يَوْمَ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ مِنَ النَّارِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ

فَـدِينُ زُهَيْـرٍ وَهْـوَ لَا شَـيْءَ غَيْـرُهُ وَدِيـنُ أَبِـي سُـلْمَى عَلَـيَّ مُحَـرَّمُ

وحين سمع كعب أخو جبير بإسلام أخيه استاء وكتب إليه محاولا دعوته لترك الإيمان بالدين الاسلامي منكرا عليه اعترافه بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) قائلا:

أَلَا أَبْلِغَـا عَنِّـي بُجيـرًا رِسَـالَةً فَهَل لَكَ فيما قُلتَ بِالخَيفِ هَل لَكا

شَـرِبتَ مَـعَ المَـأمونِ كَأسـاً رَوِيَّـةً فَإِنهَلَـكَ المَـأَمونُ مِنهـا وَعَلَّكـا

وَخالَفَـت أَسـبابَ الهُـدى وَتَبِعتَـهُ عَلَـى أيِّ شَـيْءٍ وَيْـب غَيْـرِكَ دَلَّكَـا

إنّ ماوصل إلينا من هذا الشعر لا يتجاوز الأبيات والمقطوعات ، ولعل لضراوة تلك الحروب أثرا كبيرا في انصراف الناس الى القتال مرددين ما يقتضية الموقف من أبيات قلائل ، لأنّ طول القصائد يحتاج الى نفس طويل والى فترة زمنية يعاود فيها الشاعر أفكاره وتأملاته، أمّا وهو في خضم تلك الحروب التي كانت تشكل للمسلمين مسالة البقاء أو الموت ، البقاء للعقيدة ، أو الفناء في سبيلها ، فشغلهم الاشتراك في ردع المرتدين و قتالهم .

ج- مناقشة المرتدين:

وهي تلك الأبيات التي قيلت في حروب الردة يناقش فيها الشعراء المسلمون المرتدين ويدعونهم الى التعقل وعدم الخروج على دين الله . وقد قال المرتدون أشعاراً أيضاً وقد أصاب أشعار الجانبين الضياع نظراً للحروب الطاحنة ، ولتحرج المسلمون من روايتها . وإنّ ما وصل منها لايتجاوز الأبيات والمقطوعات . ونجد في تلك الأبيات التي قيلت في لحظات سريعة ومضات تصور ثبات العقيدة في نفوس المسلمين ودفاعهم عنها.

إنّ الشعر الذي قيل في حروب الردة يُسجّلُ أكثر من ملاحظة ، منها:

١-قلة هذا الشعر، ومعظمه مجرد نظم لا يرتقي الى مستوى الشعر الجيد.

٢-ويبدو عليه الافتعال في نظم معان لا تمثل ظروفها، ولا قوة الحرب الطاحنة بين المسلمين والمرتدين.

٣-وأنّ كثيرا من هذا الشعر مفتعل خال من العاطفة الدينية، والقبلية.

٤-كما كثر فيه الشعر غير المنسوب ؛ لشدة انشغال المسلمين بالوقائع دون رواية الشعر وتوثيقه.

فقد ذُكر أنّ عبد الله بن مالك الأرحبي وقف ناصحا قومه بني حمدان حين أعلنوا ردتهم ليعيد إليهم ثبات العقيدة منطلقا من الآية الكريمة (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ) . وكان هذا الصحابي الجليل قد خاطب قومه قبل أن ينشدهم البيت بقوله : يامعشر حمدان إنّكم لم تعبدوا محمدا ، وإنّما عبدتم ربّ محمد (وهو حي لايموت).

ويتألم شاعر آخر فينفث نفثة حسرة على مرأى قبيلته المرتدة وأتباعها دعوة الدجال طلحة الكذاب فيقول:

لَهِفي عَلَى أَسَدِ أَضلَّ سَبِيلَهُم بَعْدَ النَّبِيِّ طُلَيْحَةُ الْكَذَّابُ

وهذا فاتك بن زيد بن واهب العَبسي يهجو قومه تميم حين أعلنوا ردتهم ويحاول أنْ يدعوهم للعودة الى دين الله ، ويقال أنّ مالك بن نويرة سيد تميم أراد قتله لدعوته هذه حين قال مخاطبا مالك بن نويرة:

قُلْتُ يَا مَالِ إنَّ رَبَّكَ حَيٌّ فَاعْبُدَنْهُ وَدِنْ بِدِينِ الرَّسُولِ

إنَّهَا رِدَّةٌ تَقُودُ إلَى النَّارِ فَلَا تُوْلَعَنْ بِقَالٍ وَقِيلِ

وهكذا يأتي رد فاتك بن زيد مذكرا مالكا بأن محاولة الردة تهلك صاحبها و تؤدي به الى النار إن امتنع المرتدون عن أداء الزكاة الى بيت مال المسلمين إشارة الى ردتهم و تعطيلهم ركنا من أركان الإسلام خاصة إذا أضافوا إليه تعطيلا آخر وهو تركهم الصلاة ، وفي هذا يقول أحد الشعراء:

لعمري لئن اجمعت عامر على كفرها بعد اسلامها

و مناهم قرة النزهات لقد رزئت عظم أحلامها

أضاع الصلاة بنو عامر وأهلكها منع أنعامها

وفي منعها الحق سفك الدماء ووصم النساء لأيتامها

د- التبرئة من المشركين :

وروى عمر بن شَبَّة حُنَيف بن عُمير اليَشْكري قال لما قتل محكّم بن الطُّفيل أحد زعماء المرتدين يوم اليمامة(وهو من أيام حروب الردة) معلنا بان دينه دين الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأنّه موحد يتمنى أن يموت وهو ثابت اليقين و الإيمان بتوحيد الله .

إِنَّهَا يَا سُعَادُ مَنْ حَدَّثَ الدَّهْـ ـــرُ عَلَيْكُم كَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ

إِنَّ دِينَ الرَّسُولِ دِينِي وَفِي القَوْ ـمِ رِجَالٌ عَلَى الهُدَى أَمْثَالِي

أَهْلَكَ القَوْمَ مُحْكَمُ بْنُ طُفَيلٍ و رِجَالٌ لَيْسُوا لَنَا بِرِجَالِ

إِنْ تَكُنْ مُنْيَتِي عَلَى فِطْرَةِ اللّ هِ حنيفا فإنّني لا أبالي

وكذلك امرؤ القيس بن عابس شاعر ارتد قومه فخالفهم رأيه و ثبت على دينه، وحاول أن يدعوهم الى الرشاد فأبوا فلم يجد بدا من ارسال شعر الى الخليفة أبي بكر (رضي الله عنه) يعلن ثباته على دينه وعقيدته و تبرئته من ردة قومه و رحلته عنهم متخذا أبيات الشعر وسيلة لإيصال رسالته:

أَلا أَبلِغ أَبا بَكرٍ رَسولا وأَبلغْها جَميعَ المُسلِمينا

دَعَوتُ عَشيرَتي لِلسلمِ حتّى رأَيتُهُمُ أغاروا مُفْسدينا

فَلَيس مُجاوِراً بيتيَ ببيوتا بِما قالَ النّبيُّ مُكَذِّبينا

ولا مُتبَدِّلاً بِاللهِ رَبّا وَلا مُتَبدِلا بالدين دينا

شَأَمتُم قَومَكم وَشأَمتمونا وآخركم سَيَشأَمُ آخرينا

هـ-العودة الى الاسلام مرة أخرى:

وهناك بعض المقطوعات التي أعلن فيها أصحابها توبتهم وعودتهم عن الردة الى الإسلام وهي أشعار قليلة نظرا لكثرة القتلى في تلك الحروب الطاحنة بين المسلمين والمرتدين . يقول جندب بن سلمى:

نَدِمتُ وايقنتُ الغداةَ بأنني أتيتُ التي يبقى على المرءِ عارُها

شهدتُ بان الله لاشيء غيره بني مدلج فاللهُ ربي و جارُها

ويلاحظ ان معظم هذه الاشعار لا تتجاوز الابيات المفردة او المقطوعات القصار وأصحابها لا يمكن أنْ يُدرجوا ضمن الشعراء قدر كونهم مصورين لمواقف اقتضاها الثبات على العقيدة الدين ويمكن أنْ يشكلوا مع شعراء الدعوة صورة لغرض جديد عرفه الشعر العربي في صدر الاسلام وهو غرض العقيدة والثبات على الدين ، ولن نطيل الوقوف في شعر الدعوة لانّ دراسة شعر حسان ذاته هو خير صورة لهذا الشعر و مواكبته الأحداث وتفاعله مع تغيرات العصر ومتطلباته فكرا ولغة وأسلوبا .